إلى الشمال نحو القاهرة، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم، فأرض الله واسعة ورزق الله ميسر لمن ابتغاه، وها أنا ذي قد حزمت أمري وجمعت متاعي الخفيف وصممت أن أخرج، ولكن البستاني موكل بالدار يمنعني أن أخرج منها ويحول بيني وبين الباب، وينبئني بأن سيده ألقى إليه أثناء انصرافه أمرًا حازمًا صارمًا أن يحول بيني وبين الطريق، وأن يتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع ليمسكني في الدار حتى يعود. وإذًا فلم يكن جادًّا حين اتفق معي على أن نفترق، وإذًا فلم يكن هادئًا حين أظهر الهدوء ولا راضيًا حين تكلف الرضا، وإنما كان ماكرًا مخادعًا. ومن يدري! لعله كان صادق العزم خالص الرأي، فلما انصرف عني تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه أن يرسل هذه الفتاة ولَّما يخضعها لما أراد.

وقد استيأست أو كدت أستيئس من ذلك الخاطر الذي كان يُعينني أول الأمر على المقاومة أو يغريني بها أو يدفعني إلى الإغراء والإطماع ثم إلى الإباء والامتناع! فقد كنت أعتقد أن لهذا الشاب فيَّ أربًا. إنه يشتهيني كما اشتهى غيري من الفتيات، وإن امتناعي عليه قد زاده حرصًا عليَّ وتعلقًا بي، ولست أكذب نفسي فكثيرًا ما سألتها: أتري شهوته قد استحالت إلى حب؟ أما الآن فأنا مستيقنة أنه لا يحبني، بل لم يحبني قط، وأنه لا يشتهيني، ولعله يزدريني، وإنما يريد أن يقهر فيَّ عدوًّا متمردًا وخصمًا عنيدًا؛ فلألقين البأس بالبأس، ولألقين العناد بالعناد.

وما كان أيسر الهرب لو أني رغبت في الهرب أو فكرت فيه، لكني كنت أريد أن أترك الدار جهرة لا سرًّا، وعلى علم منه لا على جهل. ومن يدري! لعلي لم أكن أحب أن أترك الدار، وإن كان هذا الخاطر لم يعرض لي ظاهرًا جليًّا، وهو يعود مع المساء، وما أكثر ما يعود الآن مع المساء؛ وينفق ليله كله في الدار لا يسمر ولا يلقى أصحابه. ومن يدري! بم كان أصحابه يعللون انقطاعه عن السمر وإيثاره للعزلة، ولكنه يعود اليوم إلى الدار هادئًا ظاهر الرضا، ويلقاني كما انصرف عني مبتسمًا في كآبة، وهو يسألني: أما تزالين هنا وقد فارقتك على ألا ألقاك إذا عُدت؟!

– أجل! فارقتني على ألا تلقاني، ولكنك أمرت خادمك ألا يخلي بيني وبين الطريق.

– ومن زعم لك هذا؟ لقد كذبك الخادم، وما أرى إلا أنه حريص على بقائك، كاره لفراقك؛ ومن يدري! لعلك أنت لا تكرهين البقاء معه والاتصال به فهو الذي سماك لي، وهو الذي أنبأني بمكانك، وهو الذي جاء بك إلى هذه الدار، إني إذن لأحمق؛ لقد خدعني هذا البستاني، ولقد اتخذ داري مسرحًا للهوه وهواه، فأنت إذن لا تعرضين عني ولا